د. مروان دويري*

عامل الخوف والشعور بالذنب في السياسة الإسرائيلية

مضى على الصراع بين اليهود والفلسطينيين على فلسطين أكثر من مئة سنة وكانت نتيجته، حتى الآن، تشريد الشعب الفلسطيني واحتلال أرضه وسقوط الألوف من الضحايا. ومن جهة أخرى أقام اليهود دولة إسرائيل على نحو ٧٨٪ من أرض فلسطين وسيطروا على الجزء الباقي بقوة الاحتلال. أثناء هذا الصراع تلقَّت إسرائيل الدعم من معظم الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة وتحولت إلى دولة عسكرية عظمى استطاعت احتلال أجزاء من أربع دول عربية. كيف يستوي هذا الواقع التاريخي مع ادعاء إسرائيل بأنها الضحية المهددة بالتصفية ومع شعور قسم كبير من اليهود بالخوف على بقائهم؟ كيف يمكن التعامل مع عدو خائف وشرس؟

الخوف على البقاء في التاريخ اليهودي

يصف التاريخ اليهودي بعض الحقب التاريخية التي تعرض فيها اليهود إلى اعتداءات تهدد بقاءهم أذكر منها: أسطورة «مسادا» قبيل الميلاد التي تصف ملاحقة اليهود من جهة وتمجد صمودهم من جهة أخرى، تحميل اليهود مسؤولية قتل المسيح وبالتالي اضطهادهم في أوروبا، طرد اليهود (والمسلمين) من الأندلس في القرن الخامس عشر، وملاحقة اليهود ومحاولة تصفيتهم من قبل النازية قبيل أكثر من نصف قرن.

بغض النظر عن الأسباب الموضوعية لهذه الأحداث إلا أنه من الواضح بأن هذه الأحداث وغيرها قد استغلت لتغذية ولتكريس شعور اليهود الدائم بالملاحقة والاضطهاد من قبل الآخرين. في الأدبيات يشار إلى هذا الشعور بجنون الارتياب والاضطهاد اليهودي Jewish Paranoia أو عقدة مسادا. مصطلح «جنون الارتياب» يشير إلى عنصر «الجنون» في خوف وارتياب اليهود وشعورهم بالملاحقة وذلك لأن اليهود يبالغون في الخوف ويواصلونه إلى ما بعد انتهاء الأحداث التاريخية المهدِّدة لعدة قرون وبعدما تغيب المبررات الموضوعية للخوف.

الصهيونية وكوارث اليهود

معظم الشعوب تعرضت في فترات تاريخية لأحداث هددت بقاءها (السكان الأصليون في أميركا وفي أستراليا، اختطاف الأفارقة

* أخصائي نفسي

التمسك، الواعي وغير الواعي، بدور الضحية هي مصلحة صهيونية وإسرائيلية تستقطب من خلاله تضامن الرأي العام لدعم المشروع الصهيوني ولتبريره. من خلال التمسك بدور الضحية «تُشَيطِن» Demonizes إسرائيل الآخر الفلسطيني (والعربي والإسلامي) لتبرر سياستها التوسعية والقمعية ضده. وراء حاجة إسرائيل للتمسك بدور الضحية يقف إلحاح الصحافة الإسرائيلية الاستحواذي على أن يعلن كل عربي استنكاره لأي عمل يكون اليهود ضحيته.

واستعبادهم في الولايات المتحدة، اليابانيون في هيروشيما وناغاساكي وغيرهم) إلا أنها لم تحوّل هذه الأحداث لعنصر أساسي في الثقافة والعقل الجماعي كما فعل اليهود. يبدو أن تحويل هذه الأحداث التاريخية إلى بارانويا متجذرة في الثقافة الجماعية يميز العقل اليهودي دون غيره وساهمت الحركة الصهيونية في تطويره. لقد حاولت الحركة الصهيونية الاستفادة من الكارثة التي حلت باليهود على أيدي النازيين لإقناع اليهود بالهجرة لإسرائيل ولإقناع العالم بضرورة وجود وطن لليهود. في الوقت الراهن نلاحظ كيف تسمي إسرائيل أي هجوم على سياستها باللاسامية مستفيدة من الخوف التاريخي المتجذر في العقل اليهودي.

إن الادعاء بأن الحركة الصهيونية قامت لإنقاذ اليهود من النازية ليس إلا تشويها للحقيقة، إذ أنه من المعروف بأن الصهيونية والهجرة الصهيونية بدأت أصلا قبل عدة عقود من ظهور النازية فكيف إذن تكون النازية سببا للمشروع الصهيوني؟ الحقيقة هي أن الصهيونية قد استعملت الشعب اليهودي لتحقيق مشروعها الذي جاء لخدمة مصالح فئة محددة من الشعب اليهودي باسم الشعب اليهودي.

وأكثر من ذلك، هنالك أدبيات عديدة توجه الاتهام للحركة الصهيونية التي أدارت ظهرها لمعاناة اليهود في ألمانيا وأوروبا ووجهت جل طاقاتها وأموالها لإنجاز مشروع الاستيطان والاستيلاء على الأراضي الفلسطينية بدلا من إنقاذ اليهود في المعسكرات النازية.

لقد نشرت صحيفة دافار في ٢٢ نيسان ١٩٦٤ تصريحا جريئا لناحوم غولدمان رئيس الكونغرس اليهودي العالمي لا شك بأن التاريخ سيحكم على جيل الكارثة الذي عاش في بلاد حرة بأنه مذنب.... سيتهمه بأنه لم يتصدَّ لمحاولات الإبادة.... لا شك لدي بأنه كان بإمكاننا إنقاذ عشرات الألوف.... لكننا لم نفعل ذلك». هنالك تصريحات عديدة لنشطاء في معسكرات التركيز الذين اتهموا الحركة الصهيونية بإهمالهم وعدم مد يد العون إليهم ولم يساعدوهم على الخلاص من النازية.

في كتاب «ضحايا الكارثة يَتّهمون» (The Holocaust victims accuse) يقتبس المؤلف الرابي موشي شونفيلد Rabbi Moshe Shonfeld أقوال أحد القادة الصهيونيين يتسحاق غرينباوم Yitzhak Greenbaum الذي قال في أحد اجتماعات الحركة الصهيونية في تل أبيب في شباط ١٩٤٣ ما يلي:

«عندما جاؤوا إلينا بخطتين: إنقاذ الجماهير اليهودية في أوروبا أو تحرير الأرض، أعطيت صوتي، بدون ثانية تفكير، لأجل إنقاذ الأرض. كلما زاد الحديث عن ذبح شعبنا، كلما تقلص جهدنا لتهويد الأرض. لو كان بالإمكان اليوم شراء رزم طعام بأموال الكيرن هييسود لإرسالها إلى لشبونة، هل سنفعل ذلك؟ لا، ومرة أخرى لا»(ص ٢٦).

في مقالة للكاتبة ليز ليفيدو ، نشرت في الانترنت (Levidow, June 1998)، تصف كيف تعاونت الصهيونية مع اللاساميين في أوروبا الغربية لدفع الهجرة لإسرائيل، وكيف تماهت هذه الحركة مع «الأوروبي الغربي» ومع نمط الدولة الغربية وقمعت الهويات الثقافية ليهود أوروبا الشرقية ولليهود العرب (يهود الدول العربية) بهدف خلق هوية «اليهودي الجديد». وتقتبس تصريحات عديدة لبن غوريون وحاييم فايتسمان وغيرهما ممن أبدوا تحفظهم من اليهود الشرقيين وعبروا عن تحقيرهم لثقافة الشرقيين وعقليتهم. وتشير إلى أن رفض الحركة الصهيونية لليهود الشرقيين وصلت لدرجة توجيه هجرة يهود أوروبا الشرقية الى أماكن أخرى. وتؤكد الكاتبة بأن الحركة الصهيونية وإسرائيل بدأت بتشجيع هجرة يهود الدول العربية فقط بعد جفاف

هجرة يهود أوروبا الغربية في بداية ١٩٥٠ وعندها القوا بهم في مستوطنات خطرة على الحدود وشغلوهم بأعمال رخيصة.

تدحض هذه الاقتباسات الأهداف المعلنة للحركة الصهيونية التي تدعي أنها قامت لحماية اليهود من اللاسامية. وتبين بأن الحركة الصهيونية لم تظهر لتنقذ اليهود من الكارثة بل ظهرت قبل ذلك بكثير واستغلت الكارثة لترويج مشروعها بين اليهود وعلى الرأي العام العالمي. من هنا فقد كان من مصلحة الصهيونية تطوير البارانويا لإقناع اليهود والعالم بوجود لاسامية تهدف إلى تصفية اليهود وذلك لترويج مشروعها الاستيطاني في فلسطين.

البارانويا اليهودية: التمسك بدور الضحية وشَيْطنة الفلسطيني

البارانويا مرض نفسي يتميز بنَسْب نوايا عدوانية للآخر تجعل المريض يحذر ويخاف الآخرين معتقدا بأنهم يتآمرون عليه ويلاحقونه لأنه الأفضل. يعتمد المريض عادة على أحداث حقيقية حصلت ضده، إلا أنه يحملها معاني أكثر مما تتحمل ويعتبرها أدلة على صحة أوهامه دون وجود أية علاقة سببية منطقية بينها وبين أوهامه. فبالنسبة لمريض البارانويا رنين هاتف مثلا أو نظَرات جار أو انقطاع التيار الكهربائي يمكن أن تكون أدلة كافية لوجود مؤامرة ضده تهدف إلى إفشاله أو القضاء عليه.

من يشعر بأنه أرتكب ذنبا يخاف أن يكشف أمره وأن يعاقب مما يجعله يشك ويخاف ممن لا داعي لأن يخشاهم. فمثلا إذا دهس سائق شخص ما ثم هرب، في اليوم التالي يبدأ الخوف من صوت الهاتف أو من نظرة جاره أو قرع جرس الباب خشية ملاحقته ومعاقبته على الفعلة التي يعي أنه ارتكبها.

تعتبر البارانويا آلية نفسية غير واعية تتضمن إسقاط عدوانية المريض على الآخر وتعميمها وتطويرها. تهدف هذه الآلية إلى إخفاء عدوانية المريض من جهة ورفع ثقته واعتزازه بنفسه من جهة أخرى. البارانويا لا تقتصر على المرضى النفسيين وإنما تصل للجمهور العادي بحيث يخلق الأفراد والجمهور البارانويا بشكل غير واع لعدة أهداف:

* لتبرير أعمال عدوانية ولا إنسانية (مثلا: نحن نقصف مواقع الفلسطينيين لأنهم ينوون القيام بقتل اليهود. هنا نرى بوضوح إسقاط العدوانية الإسرائيلية على الضحية الفلسطينية، ونرى عملية الإنكار Denial لواقع الاحتلال العدواني الإسرائيلي).

* لحماية النفس الفردية أو الجماعية من الاتهام بالعدوانية وللمحافظة على الصورة الإيجابية للذات وعلى الاعتزاز بالنفس رغم هذه العدوانية أو رغم الفشل (بواسطة إسقاط العدوانية على الفلسطينيين تحرر إسرائيل عمليا نفسها من الصفات الوحشية وتنسب لنفسها صفات إنسانية إيجابية فهي ليست أنها غير عدوانية بل إنها تحارب الإرهاب).

البارانويا تحصل عادة بشكل غير واع إلا أن نفس الآلية يمكن أن تحصل بشكل واع كجزء من مخطط سياسي أو عسكري. الصهيونية استفادت من الكارثة النازية ضد اليهود لتبرير الهجرة لفلسطين وتهجير سكانها وإقامة إسرائيل. اليمين الإسرائيلي يستعمل أي تصريح أو عمل يهدد اليهود لتبرير سياسته التوسعية، فيستعمل ويضخم التصريحات البائسة الداعية لرمي اليهود في البحر والتصريحات التي تطالب بتحرير كل الأراضي الفلسطينية ويستفيد من الأحداث الدموية التي يكون ضحيتها اليهود لتبرير مواقفه القمعية والتوسعية.

التمسك ،الواعي وغير الواعي، بدور الضحية هي مصلحة صهيونية وإسرائيلية تستقطب من خلاله تضامن الرأي العام لدعم المشروع الصهيوني ولتبريره. من خلال التمسك بدور الضحية «تُشَيطِن» Demonizes إسرائيل الآخر الفلسطيني (والعربي والإسلامي) لتبرر سياستها التوسعية والقمعية ضده. وراء حاجة إسرائيل للتمسك بدور الضحية يقف إلحاح الصحافة الإسرائيلية الاستحواذي على أن يعلن كل عربي استنكاره لأي عمل يكون اليهود ضحيته. إن سؤال الاستنكار الموجه للعربي هو الذي يجب أن يستنكر لأنه يفترض بأن العربي شيطان يفتقر للصفات الإنسانية التي يتحلى بها بقية البشر، وبواسطة هذا الالحاح على هذا السؤال يحاولون إبقاء إنسانية العربي في امتحان في الوقت الذي ينصبون أنفسهم قيمين على الأخلاق الإنسانية، وإلا فما حاجتهم لهذا الاستنكار؟

بنفس روح الشيطنة رأينا كيف تركز وسائل الإعلام الإسرائيلية على مظاهر الفرح التي أبداها بعض الفلسطينيين والعرب في أعقاب الهجوم على عمارتي التوأم الأميركية والبنتاغون، وكيف تتجاهل أو تقزم الاستنكار الفلسطيني والعربي العارم لهذا الهجوم بل واعتبرته تكتيكا لحماية النفس. لشيطنة الفلسطيني يسخرون اللغة فيصفون قتل الجنديين الإسرائيليين في رام الله «لينش» ويصفون المقاتلين الفلسطينيين «مخربين».

الصهيونية وإسرائيل تخلطان عمدا بين معارضة سياستهما الاستيطانية والقمعية من جهة وبين اللاسامية وتبرير الكارثة من جهة أخرى. فوسائل إعلامهما يوصمان كل معارضة للصهيونية أو لسياسة إسرائيل باللاسامية وتستل قضية الكارثة في كل مناسبة كهذه. في مؤتمر (دربان المنعقد في أواخر آب ٢٠٠١ في جنوب أفريقيا) الذي ظهر فيه رفض شعوب العالم للصهيونية والاحتلال الاسرائيلي استلت إسرائيل قضية الكارثة واللاسامية. مما دعا سكرتير الأمم المتحدة

كوفي أنان بالكف عن «استعمال الكارثة كمبرر لاستمرار سياسة الاحتلال وقتل الفلسطينيين». عندما نوى نفس المؤتمر الإعلان عن رفض شعوب العالم لجميع الكوارث ضد الإنسانية احتجت إسرائيل وبقية المجموعات الصهيونية على ذكر كارثة اليهود في جملة الكوارث الأخرى التي ارتكبت ضد شعوب العالم وطالبت أن تتميز كارثتهم عن كوارث بقية الشعوب (Klusener,2001).

في مقالة أخرى للكاتبة سلفيا تيننباوم، إحدى الناجيات من النازية، تقول بأنه كان من الطبيعي أن نصف كيف «اقتيد اليهود كالخراف للجزار» وأن يثبت اليهود هذا الوعي في نفوسهم وفي نفوس بقية الشعوب منعا لتكرار الكارثة، أما الآن بعد عقود تراكم فيها فيض من الكتب والوثائق عن الكارثة فيجب أن يكف اليهود عن هذا الاستحواذ لكي لا يفقدوا الرؤية الصحيحة لحياتهم اليومية وللإنسانية ولتاريخ اليهود الذي يمتد آلاف السنين والذي لا يعني بأن اليهودي هو ضحية «مدموغ بنجمة الموت الصفراء للأبد» (Tennenbaum,1997).

في مقالة نشرت في الانترنت سنة ١٩٩٩ بعنوان «Looking at the Land?» يوجه الرابي توبا سبتسر نداء لليهود يدعوهم إلى الانتباه إلى كيفية تشوه قيمهم الإنسانية نتيجة تورطهم وتمترسهم بدور الضحية فيقول:

«جراحنا تجعلنا غاضبين ولا مبالين للآخرين ونؤذيهم» ويضيف: «نحن اليهود متعلقون بفكرة أننا ضحية، ولا نعرف ماذا نفعل عندما لا نكون كذلك. إسرائيل تملك أحد أقوى الجيوش في العالم، وتتمتع بدعم أقوى أمة في الكون، ومع هذا يبقى الخوف بأن كل هذا سيختفي كنفخة دخان. في أميركا نتمتع بدرجة من الاندماج والقبول تفوق ما تمتعت به أية جالية يهودية في التاريخ: نتمتع بوفرة مادية وأبواب مفتوحة لكل أنواع القوة، ومع هذا نتعلق لدرجة الانبهار بالكارثة (النازية) وبصورتنا الذاتية كضحية» ويضيف: «اللاسامية هي تشويه ونحن قد تشربنا هذا التشويه، وهو يؤثر على قدرتنا على رؤية الأشياء بوضوح. هذا التشويه يمس قدرتنا على رؤية أنفسنا ويمس الطريقة التي نتعامل بها مع اليهودية ومع إسرائيل».

ويدعو الرابي سبتسر اليهود إلى إسماع صوتهم ونقدهم الذاتي ليس من باب «الخوف أو الخجل أو الإنكار أو البارانويا، بل من موقع الوضوح والاستقامة» ويضيف: «نستطيع القيام بذلك فقط إذا شفينا بعض جروحنا كيهود».

في مقالة أخرى للمؤرخ إيلان بابي نشرت في مجلة دراسات الشرق الأوسط يقول فيها: أن الإسرائيليين قد مأسسوا فكرة شيطنة الآخر الفلسطيني والعربي من جهة وفكرة إسرائيل الضحية. أما الاعتراف بأن الآخر الفلسطيني هو ضحية أو الاعتراف، بما هو أصعب من ذلك، بأن إسرائيل هي سبب نكبة الفلسطينيين فهو أكثر ما يرعب الإسرائيليين. لأن هذا الاعتراف يمس أسطورة «أرض بدون شعب لشعب بدون أرض» في الصميم وينسف الادعاء الذي يترعرع عليه كل طفل يهودي بأن اليهود ضحية وبأن الصهيونية حركة إنسانية وبأن الفلسطيني شيطان. إسرائيل تخاف من فقدان دور الضحية أكثر من خوفها على بقائها. أو أنها تعتقد بأن دور الضحية يضمن لها بقاءها.

أعتقد أن وراء البارانويا اليهودية وشيطنة الفلسطيني يكمن شعور غير واع بالذنب. فمن يشعر بأنه أرتكب ذنبا يخاف أن يكشف أمره وأن يعاقب مما يجعله يشك ويخاف ممن لا داعي لأن يخشاهم. فمثلا إذا دهس سائق شخص ما ثم هرب، في اليوم التالي يبدأ الخوف من صوت الهاتف أو من نظرة جاره أو قرع جرس الباب خشية ملاحقته ومعاقبته على الفعلة التي يعي أنه ارتكبها. في لا وعي اليهودي الإسرائيلي تكمن المعرفة بأن هنالك لاجئين فلسطينيين وبأنه يسكن بيت أحدهم ويستعمل أرضه. في لا وعيه تهمس المعرفة بأن أهل الشهداء الفلسطينيين لن يغفروا وبأن اللاجئ الفلسطيني لن يهدأ وينوي العودة وربما ينوي الانتقام. يحاول اليهودي الإسرائيلي إنكار هذه المعرفة ومنع سيطرتها على وعيه تحاشيا للخوف وللشعور بالذنب الذي تثيره هذه الحقيقة. فيجند لهذا الغرض العديد من الدفاعيات النفسية التي تكوّن وتكرس حالة البارانويا.

الدفاعيات النفسية المرافقة للبارانويا

البارانويا والتمسك بدور الضحية وشَيْطَنَة الآخر تمر عبر استعمال آليات دفاعية نفسية غير واعية (Defense Mechanisms) تشوه الواقع من جهة وتحافظ على الراحة النفسية والثقة بالنفس (دويري ٢٠٠١). فيما يلي بعض الدفاعيات النفسية التي تعمل عادة في رزم يكمل كل منها مهمة الآخر.

الإنكار :Denial

تجعل هذه الدفاعية صاحبها يرفض إدراك حقيقة مُرّة تسبب له القلق أو تهز انسجامه وتوازنه النفسيين. تعطي الطبيبة النفسية سارا طومبسون (Thompson,2000) مثلا على دفاعية الإنكار:

من البديهي القول بأن الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني سيحسم وفق توازن القوى بأشكالها المختلفة وخلال معركة صمود ومقارعة طويلة المدى. في هذا الصراع يشكل الرأي العام الإسرائيلي والعالمي عاملا حاسما. علما بأن البارانويا اليهودية تشكّل أداة رئيسية بيد إسرائيل لذلك فإن تغذيتها تخدم الأهداف الإسرائيلية، وشرذمتها تخدم الأهداف الفلسطينية.

تخيل امرأة بدأت تلاحظ بأن زوجها بدأ يتأخر على غير عادته، وتفوح منه رائحة عطر جديد، وحسابه يشير إلى أنه يشتري الكثير من الزهور والجواهر والهدايا. في الفترة الأولى يصعب عليها إدراك حقيقة هذه التغيرات بل تميل إلى إنكارها وتغضب على صديقتها التي تحاول كشف المعنى الحقيقي لهذه التغيرات. الحقيقة واضحة لكن الزوجة التي لا تستطيع تحمل ومواجهة خيانة زوجها تنكر بدون وعي هذه الحقيقة المرة.

هنالك حقائق عديدة لو دخلت وعي اليهود والإسرائيليين لقضَّت مضاجعهم ونسفت النظام الذهني والنفسي الذي يعتمد الحكاية الصهيونية التي يتربى عليها كل طفل يهودي. من بين هذه الحقائق: تواطؤ الصهيونية مع جهات لا سامية، وعدم استنفاد كل الوسائل الممكنة لإنقاذ اليهود من النازية، واقتلاع الشعب الفلسطيني وتشريده، انتهاج سياسة تمييز واضطهاد عنصري ضد العرب في إسرائيل، احتلال شعب آخر والقيام بجرائم بشعة ضده. آلية الإنكار تحرر صاحبها من عبء هذه الحقائق على العقل والضمير.

الإنكار، مثله مثل بقية الدفاعيات النفسية، يشوه الواقع الموضوعي ويبعد الشخص عن إدراكه، خاصة إدراك مكونات الواقع التي تخل بالتوازن النفسي. الإنكار إذن يمس صميم التفكير المنطقي بغض النظر عن مستوى ذكاء صاحبه، ويفسر لنا كيف لا يرى الإسرائيلي التناقض البديهي بين السلام والاحتلال. فهو يطالب الفلسطينيين بالسلام ولا يدرك في تلك اللحظة بأن هنالك احتلالاً أصلا وبأنه لا يمكن تحقيق سلام بوجود الاحتلال. كذلك، لا يرى التناقض البديهي بين التعايش والتمييز القومي، فهو يطالب المواطنين العرب في إسرائيل بالتعايش ولا يدرك بأنه لا يمكن تحقيق التعايش طالما التمييز قائم. حين يطرح العربي قضيتي الاحتلال والتمييز في جداله مع الإسرائيليين كشرطين للسلام وللتعايش يلقى استغرابا ويُتّهم بأنه يقحم السياسة بغير مكانها. هذا هو الإنكار بعينه الذي يحافظ بواسطته الإسرائيلي على توازنه النفسي بواسطة إنكار هذا الواقع غير المتوازن.

يشبه الإنكار دفاعية أخرى وهي الكبت التي ينكر بواسطتها الشخص، ليس الحقيقة الخارجية المرة، بل حقيقة داخلية (دافع أو شعور) لا تنسجم مع صورة الشخص عن نفسه. الأطفال الذين يعانون قمع والديهم يكبتون غضبهم على الوالدين. الأطفال يكبتون غيرتهم من اخوتهم وكراهيتهم لهم تحاشيا للشعور بالذنب. بنفس الروح يكبت الصهيونيون وإسرائيل نواياهم الأنانية والعدوانية وهم مقتنعون بأنهم وطنيون وإنسانيون.

الإسقاط Projection

لتدعيم الإنكار والكبت وإبعاد المضامين السلبية تماما عن النفس يقوم المرء بدون وعي بإسقاط هذه المضامين على الآخر. الإسقاط يبعد التهمة عن الذات وفي نفس الوقت يبرر النوايا العدوانية والعنصرية ضد ذلك الآخر ويبرر ممارستها بحجة أن الآخر هو الطرف الشرير. شيطنة الفلسطيني والعربي هي تطبيق حرفي لدفاعية الإسقاط: إسقاط عدوانية الصهيونية وإسرائيل على الفلسطيني لتثبيت إنكار العدوانية ونفيها عن إسرائيل من جهة ولتبرير العدوانية ضد الفلسطينيين من جهة أخرى.

لتثبيت الإنكار والإسقاط تقوم وسائل الإعلام الإسرائيلية عمدا بتسخير اللغة لهذا الغرض. فتسمية المكافح الفلسطيني «مخرّباً» والنضال الفلسطيني «إرهابا» إنما تسقط الشر على الفلسطيني من جهة وتحول دون إيقاظ ضمير الإسرائيليين ضد الممارسات العدوانية الإسرائيلية من جهة أخرى .

التكوين العكسي Reaction formation:

أحيانا لا يكفي إنكار الحقيقة المرة وتكون حاجة لإظهار عكس هذه الحقيقة لإخفائها ليس عن الآخر فحسب بل عن الوعي. الأطفال الذين يشعرون بالغيرة يظهرون سلوكا معاكسا للغيرة فيفرطون

بالتصريح بحبهم لاخوتهم ويقومون بضمهم بشكل زائد لكي يبعدوا، عن وعيهم في الأساس، الشعور العدواني لاخوتهم.

الصهيونيون وإسرائيل يبالغون في تأسيسهم تجاه بعض المآسي فيرسلون دعما إنسانيا لشعب منكوب هنا ويرسلون فرقة إنقاذ لبلاد انتكبت في زلزال هناك. يبالغون في إبراز كل صغيرة يقدمونها للمواطنين العرب ليس لإقناع الآخر فحسب بل في الأساس لينفوا أمام أنفسهم مواقفهم العنصرية وممارساتهم الاضطهادية.

التكوين العكسي يقف وراء دعم الغرب غير المتحفظ لإسرائيل واصطفافه فورا ضد كل ما تطلق عليه إسرائيل والصهيونية صفة اللاسامية. يقوم الغرب بالتضامن مع اليهود وإسرائيل ويتحاشى مواجهتها ليس خوفا من أن يتهم باللاسامية فحسب، بل ليؤكد لنفسه وينفي هذه الصفة أمام نفسه لينقي ضميره بعدما اقترفه من جرائم لاسامية ضد اليهود وضد شعوب سامية أخرى.

التماهي مع القاهر Identification with the oppressor:

لقد أحسن فريري (Freiri,1970, 1992) شرح نفسية الشعوب المقهورة وأوضح كيف يتماهى الطرف المقهور مع القاهر بحيث يتبنى وجهة نظره وثقافتة وأنماطه السلوكية. هذه آلية اجتماعية غير واعية شائعة تساعد الطرف المقهور على التخلص من شعور القهر والضعف والنقص بفضل تماهٍ وهمي مع القاهر والمعتدي. على صعيد فردي تجعل هذه الآلية الأطفال الذين يتعرضون لاعتداءات وتنكيل أن يتحولوا بأنفسهم إلى معتدين فيما بعد. وعلى صعيد الشعوب يتحول الشعب المقهور إلى قاهر ومعتدٍ فيما بعد.

في المقالة المذكورة للكاتبة ليز ليفيدو (Levidow, June1998)، تشير الكاتبة إلى تماهي الحركة الصهيونية مع جهات لاسامية في أوروبا الغربية ومع النظام السياسي والاجتماعي الغربي محاولين تأسيس دولة غربية تكون امتدادا لأوروبا في الشرق دون أن تكون جزءا من هذا الشرق. وتقول بأن عنصرية الصهيونية ضد العرب تتضمن نهجا أوروبيا لا ساميا.

يتساءل الكثيرون: كيف يمكن لليهود الذين عانوا الكارثة أن يقوموا فيما بعد بإحلال الكارثة على شعب آخر بدل أن يصبحوا حساسين لمعاناة الشعوب؟ آلية التماهي مع القاهر التي تنقل الضحية بشكل وهمي من موقع الضعيف إلى موقع القوي تفسر إلى حد كبير عدوانية إسرائيل ضد الفلسطينيين. الشعب اليهودي الذي نُكِب بكارثة يتوق للتخلص من الشعور بالعجز والانتقال لموقع القوي القاهر.

كيف تستوي آلية التمسك بدور الضحية المذكور أعلاه مع آلية التماهي مع القاهر القوي؟ الحقيقة أن الشعب اليهودي يستبدل حالة «الضحية الحقيقية» التي كانت في الماضي بحالة «لعب دور الضحية» في الوقت الحاضر الذي لم يعد فيه ضحية. هذا التمسك، أو مواصلة التذكر والتذكير بأنه كان مرة ضحية، ضروري لتبرير عدوانيته وقهره الحالي منعا لتكرار الكارثة.

التعامل مع عدو خائف وشَرِس

تبين هذه المقالة بأن التجربة التاريخية لليهود جعلتهم يطورون ما أطلق عليه مصطلح «البارانويا اليهودية» التي تجمع آليتها بين الخوف والعدوان على النحو التالي: على خلفية ملاحقة اليهود في الماضي، وبتوجيه من الحركة الصهيونية، يتمسك اليهود بدور الضحية ويُشَيطنون الآخر ليبرروا عدوانيتهم على الشعب الفلسطيني. هذه العدوانية تثير خوف إسرائيل وشعورها بالذنب مما يجعلها تتمترس أكثر في دور الضحية وتعمق البارانويا التي تنفي الشبهة عنها وتلصقها بالفلسطينيين مما يدفعها أكثر نحو العدوانية. هكذا، دائرة مغلقة من الخوف والعدوانية تبقي إسرائيل والرأي العام الإسرائيلي بعيدا عن رؤية الحقيقة.

كيف نواجه وكيف نحاور هذا العدو الخائف-الشرس؟

من البديهي القول بأن الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني سيحسم وفق توازن القوى بأشكالها المختلفة وخلال معركة صمود ومقارعة طويلة المدى. في هذا الصراع يشكل الرأي العام الإسرائيلي والعالمي عاملا حاسما. علما بأن البارانويا اليهودية تشكّل أداة رئيسية بيد إسرائيل لذلك فإن تغذيتها تخدم الأهداف الإسرائيلية، وشرذمتها تخدم الأهداف الفلسطينية. لذلك فإن شرذمة البارانويا اليهودية تعتبر مصلحة فلسطينية عليا، خاصة في حال غياب قوة فلسطينية وعربية تحسم الصراع وتسترد الحقوق.

إن النضال الفلسطيني ضد إسرائيل، بطبيعة الحال، يهدد ويخيف الإسرائيلي وبالتالي يعمق البارانويا التي تدفعهم بالتالي نحو المزيد من العدوان، وهذا يضع الفلسطينيين في مأزق صعب: فمن جهة عليهم مقاومة الاحتلال ودحره، ومن جهة أخرى فإن هذه المقاومة تعمق البارانويا اليهودية أكثر وبالتالي تجعل الرأي العام الإسرائيلي

يستشرس ويدعم ويبرر استمرار العدوان والاحتلال. هذا مأزق حاد ليس له مخرج بسيط بل مركب ينبثق من فهم تعقيدات الصراع نفسه.

السؤال الصعب هو: كيف يناضل الفلسطينيون وفي نفس الوقت يشرذمون هذه البارانويا؟

للتأثير على الجمهور الإسرائيلي علينا التذكر دائما بأن الدفاعيات النفسية التي تشوه الواقع، تتصلب بطبيعتها أمام أي هجوم عليها وأمام أي تهديد. وهذا فعلا ما حصل في بعض الأحيان عندما تعرضت فيها إسرائيل لهجوم مؤلم أدى إلى دفع الرأي العام الإسرائيلي أكثر نحو البرانويا والعدوانية.

هناك رأي مضاد يقول: إن إسرائيل لا تتراجع إلاّ عندما تُضرب ضربة موجعة تجعل شعبها يخاف. ولتأكيد ذلك يجري الاستشهاد بتراجع إسرائيل بعد حرب ١٩٧٣ والانتفاضة الأولى وضربات «حزب الله» في جنوب لبنان.

أعتقد بأن هذا الموقف يشوبه الكثير من التبسيط لديناميكية الصراع. فالخوف لا يؤثر في اتجاه واحد دائما ولا يؤثر بمعزل عن العوامل الأخرى، ففي ظروف معينة يعمق البارانويا وفي ظروف أخرى يؤدي إلى تراجع. فمثلا خوف الإسرائيليين نفسه الذي أدى إلى التراجعات الإسرائيلية المذكورة جعل الإسرائيليين فيما بعد يُسقطون باراك وينتخبون شارون، وجعلتهم يلتفون كرجل واحد وراء سياسته العدوانية لتصفية الانتفاضة الثانية. ومن جهة أخرى في المرات التي تراجعت إسرائيل فيها لم تفعل ذلك لمجرد إخافتها بل في الأساس بعد اختراق وشرذمة البارانويا اليهودية ونتيجة عوامل ضغط دولية. فلزيارة السادات كان عامل نفسي كبير طمأن الإسرائيليين وجعلهم يقبلون الانسحاب من سيناء وهدم المستوطنات. وللتحرك الدولي أثناء الانتفاضة الأولى وللغطاء الدولي وعلى رأسه الولايات المتحدة، حليفة إسرائيل، كان دور مهم في طمأنة الإسرائيليين ودفع إسرائيل نحو مؤتمر مدريد وفيما بعد نحو التفاوض مع منظمة التحرير. كذلك الأمر مع الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان الذي ما كان يتم بمجرد تخويف إسرائيل بل إنه وقع في أجواء ضغط عالمي ومحلي وفي ظل ضمانات دولية ودعم أميركي. كل هذه العوامل معا أقنعت الإسرائيليين بأن الانسحاب يوفر الأمن أكثر من الاحتلال. لذلك فالخوف لا يؤثر بهذه البساطة، فهو يؤثر

إذا قِسنا الأمر على مأساة الشعب الفلسطيني يمكن أن ندرك بأن الشعب الفلسطيني يستطيع الوصول إلى مسامحة ومصالحة إذا أعلنت إسرائيل مسؤوليتها عن النكبة واعتذرت للفلسطينيين وأعربت عن استعدادها لتعويضهم. لكن احتمالات هذا السيناريو تتضاءل طالما أن الاسرائيليين مغرّسون في البارانويا.

إيجابا بقدر ما يطرح بديلا يوفر الطمأنينة والأمن والسلام (أي يشرذم البارانويا).

إذن، هناك حاجة لضبط النضال الفلسطيني بحيث يواصل مقارعة إسرائيل ويؤكد الصمود والإصرار على قرارات الشرعية الفلسطينية من جهة وفي نفس الوقت لا يصل لدرجة تهدد كيان إسرائيل من جهة أخرى، لأنه عندها سيستشرس هذا العدو الشرس والبارانويدي والذي يملك القوة التي باستطاعتها النيل من الفلسطينيين ومن حقوقهم وإحداث أضرار لا يمكن إصلاحها. على القيادة الفلسطينية أن تضع خطة لاختراق البارانويا اليهودية وشرذمتها من خلال طرح خطاب واضح يحدد بديل سلام شجاع يضمن الأمن للإسرائيليين ويقلص مجال الشك والتشكيك بالنوايا الفلسطينية للحد الأدنى الممكن. على هذا الخطاب أن يأتي بموازاة لخطط المقاومة وكجزء لا يتجزأ من الخطة العامة.

أجل، إنها لسخرية القدر أن يُلقَى على عاتق الضحية توفير الأمن للمعتدي، إلا أنه في صراع البقاء، وبغياب تكافؤ القوى بين طرفي النزاع، على الضحية انتهاج الحكمة خلال بحثها عن العدل والحق. عليها اتخاذ موقف مبني على قراءة الواقع وتوازن القوى وحساب نتائج كل موقف وكل إجراء، وتسخير كل ما هو ممكن للتأثير على ميزان القوى بما في ذلك التأثير على الرأي العام.

من هذا المنظار يبدو أن توفير الشعور بالأمن للإسرائيليين ليس مصلحة إسرائيلية فحسب بل مصلحة فلسطينية أيضا. المقاومة التي تخيف فحسب تزيد من استشراس الإسرائيليين، أما المقاومة التي تقاوم وتهدد استمرار الأمر الواقع وفي نفس الوقت تطرح بديلا يضمن الأمن للإسرائيليين باستطاعتها فرض التراجع على إسرائيل كما حصل في الانتفاضة الأولى.

لست هنا في معرض طرح برنامج قومي بل ألفت النظر لدور الخوف في السياسة الإسرائيلية وإلى ضرورة العمل على شرذمة البارانويا الاسرائيلية من خلال طرح بديل واضح وآمن لكلا الطرفين. أما إبقاء البديل مغمغما فهذا يبقي لليمين الإسرائيلي مساحة شاسعة لزرع البارانويا وبالتالي دفع الرأي العام يمينا. صحيح أنه ليس من الحكمة إعلان التنازلات الفلسطينية التي تطمئن الرأي العام الإسرائيلي أثناء المفاوضات وقبل الوصول للمرحلة النهائية، لكننا يجب أن نعي كيف يؤثر هذا الغموض على الرأي العام وكيف يستغله

اليمين وينسب للفلسطينيين نوايا خبيثة تعمق البارانويا اليهودية. لذلك، من غير الضروري إعلان التنازلات بشكل غير مشروط وإنما إعلانها بهذه اللهجة: «في حالة قبول إسرائيل بكذا وكذا سنكون على استعداد لقبول كذا وكذا الذي يوفر الأمن للإسرائيليين». حين يسمع هذا الصوت بوضوح ومثابرة ومن قبل جميع المؤسسات التمثيلية للشعب الفلسطيني يتحجم حيز الغموض الذي يلعب به اليمين الإسرائيلي لتعميق البارانويا وتصعيد الاستشراس.

الخروج من دائرة التذنيب المتبادل

لا شك بأن الصهيونية وإسرائيل قد نَكَبَت ونَكَسَت الشعب الفلسطيني وشردته وأفقدته وطنه. بعد هذه النكبة يقف الفلسطينيون أمام بديلين: إصلاح التاريخ وإعادة صياغته وإقامة العدالة المطلقة فيه، أو فهم آليات التطور التاريخي والاستفادة من هذا الفهم لإيجاد حلول واقعية لمعاناتهم ومعاناة الأجيال القادمة. البدائل هي بين التغريس في ما كان (الماضي) وفي دائرة التذنيب والاتهامات المتبادلة وتوجيه كل الجهود نحو الانتقام واسترجاع الحقوق المفقودة والعودة إلى نقطة سابقة في التاريخ من جهة، وبين التفتح على الحاضر والمستقبل والتعلم مما كان والتحكم بما سيكون للاستجابة لمصالح الشعوب من جهة أخرى.

نظرة عامة على التاريخ تبين بأنه حين تكون موازين القوى ليست متكافئة لا يكون البديل الأول إلا وهما تسير نحوه الضحية لفترة ما تتكبد خلاله المزيد من الضحايا والخسائر إلى أن تصل إلى حل (أو أن يُفرض عليها حل) جديد في الواقع الجديد. صحيح أن هنالك حركة لولبية في مسيرة التاريخ تعطي انطباعا خاطئا بأن التاريخ يعود على نفسه. إلا أن نظرة متعمقة أكثر تؤكد أنه لم يعُد التاريخ يوما إلى نقطة سابقة بل تطور دائما في حركة لولبية للأمام. انقلاب التاريخ على المعتدي وسقوط الامبراطوريات يحصل عادة بفضل سيرورات تاريخية عالمية تلعب الضحية فيه دورا هامشيا.

لا أعتقد أنه يمكن تلافي محاولة الضحية إرجاع عجلة التاريخ في مراحل الصراع الأولى بمجرد الدعوة إلى تلافيها، فهنالك عوامل نفسية واجتماعية تحتم عليها السير بهذا الاتجاه رغم عقمه. لكن في مراحل معينة من الصراع لا بد أن يتحول الصراع من إحقاق الحقوق التاريخية إلى إيجاد تسوية عادلة تستجيب لمصالح الشعوب. في مؤتمر دربان المذكور أعلاه دعا كوفي أنان الأطراف إلى الكف عن الاتهامات المتبادلة والتركز في «تحسين أوضاع الضحايا» (Klusener, 2001). في عالم غير متوازن كما هو الحال في القرن الواحد والعشرين يبدو هذا التوجه حكيما وعقلانيا رغم أنه لا يحقق العدالة المطلقة. في معالجته للحرب في رواندا يدعو الكاتب الرواندي بابو أينيدو (Babu Aynido) (ورد في مقالة إيلان بابي المذكورة) إلى عدم التمركز في سؤال «من المذنب»بل التمركز في حاجات كل طرف وواجب كل طرف تجاه الآخر ليعيش بكرامة وسلام. يقول أينيدو بأنه من الصعب إقامة العدل بعد الكارثة بل ما يمكن إقامته هو وقف استمرار المعاناة.

وإذا أردنا الاستفادة من أدبيات علم النفس الخاصة بالاعتداءات النفسية والجسدية والجنسية على الأطفال والنساء (Fumia, 1998)، نرى أنها تجمع على ضرورة مساعدة الضحية، في مراحل العلاج المتقدمة، على الخروج من دائرة الماضي (دور الضحية والتذنيب والانتقام) والانتقال نحو عيش الحاضر وبنائه والتطلع بعيون الحاضر والمستقبل لا بعيون الماضي. لا يعني ذلك نسيان الماضي وعدم اتخاذ العبر منه بل السماح له أن يبقى في الماضي (الذاكرة) وتفريغ الطاقات لمعايشة الحاضر والتحرك نحو المستقبل. للخروج من دائرة الماضي لا بد من الوصول إلى مصالحة ومسامحة. ولكي تتم المسامحة لا بد للمعتدي أن يعلن تحمله المسؤولية ويعتذر ويعرب عن استعداده لتعويض الضحية بما هو ممكن في الحاضر.

إذا قِسنا الأمر على مأساة الشعب الفلسطيني يمكن أن ندرك بأن الشعب الفلسطيني يستطيع الوصول إلى مسامحة ومصالحة إذا أعلنت إسرائيل مسؤوليتها عن النكبة واعتذرت للفلسطينيين وأعربت عن استعدادها لتعويضهم. لكن احتمالات هذا السيناريو تتضاءل طالما أن الاسرائيليين مغرّسون في البارانويا. لذلك، على الفلسطينيين فحص جدوى تذنيب الإسرائيليين (رغم صحة هذا التذنيب) والتمترس في دور الضحية علما بأن هذا التذنيب لن يؤدي إلا لمزيد من الإنكار والإسقاط لكف هذا التذنيب، وإلى تمترس إسرائيلي مضاد في البارانويا والعدوان.

بشكل بارادوكسالي يؤدي التذنيب إلى تزمت الدفاعيات النفسية والابتعاد عن الاعتراف بالذنوب وعن الاعتذار. الاعتراف الحقيقي بالذنوب يتم فقط حين يتوفر الأمان للمعتدي، وعليه فتوفير الأمان للإسرائيليين هو شرط لإقناعها بتحمل مسؤوليتها التاريخية على نكبة الشعب الفلسطيني. وهنا يطلب مرة أخرى من الضحية أن تتعالى على جراحها وتدرس دورها في شرذمة هذه البارانويا ليس خدمة لإسرائيل بل خدمة لمصالح الشعب الفلسطيني.

الانطباع هو أن الخطاب الفلسطيني حتى الآن كان مشبعا بالتذنيب والتهديد والمطالبة ويكاد يخلو من تحديد البديل الآمن ومن الاستعداد للمسامحة والمصالحة في ظروف معينة، مما ترك حيزا واسعا للتشكيك بالنوايا الفلسطينية ولاستفحال البارانويا. لتقريب إمكانية تحمل إسرائيل مسؤوليتها التاريخية عن النكبة يمكن للخطاب الفلسطيني أن يتضمن الإعلان عن استعداد الفلسطينيين للمسامحة والمصالحة التاريخية والاعتراف بحاجة اليهود للأمن والوصول إلى حل يوفر هذا الأمن شريطة أن تعلن إسرائيل بشكل مواز تحملها لمسؤوليتها عن النكبة وتعرب عن استعدادها لتعويض الفلسطينيين. إنه إعلان فلسطيني مشروط بإعلان إسرائيلي مواز يمكن للفلسطينيين إطلاقه كمبادرة فلسطينية بدل الاكتفاء بالرد على المبادرات الأخرى. من شأن إعلان هذه النوايا الفلسطينية بصوت عال وبمثابرة أن يشرذم البارانويا ويدفع بالرأي العام الإسرائيلي نحو مرونة أكثر واستعداد أكبر للسلام العادل.

مراجع

Dwairy, M. (2001). Psycholgy of oppressor and psychology of oppressed (Psichologia shel medake , psichologia shel meduke). In A. Ophir (Ed.) Real Time: Al-Aqsa Intifada and the Israeli left (Zman Emet: Intifadat Al-Aqsa vehasmol haiesraa?li). P. 275-287 Jerusalem, Israel: Keter Publishing House Ltd. (in Hebrew)

Freire, P. (1970/1995). Pedagogy of the oppressed. New York: Continuum.

Freire, P. (1992/1994). Pedagogy of hope. Reliving pedagogy of the oppressed. New York: Continuum.

Fummia, J. (October, 1998). Restitution versus Retribution: The case for Victim-Offender Mediation, conflict Resolution, www.suite101.com/article.cfm/1451/11057.

Klusener, M. (August 31, 2001) U.N. Chief tells Israel to stop using Holocaust to justify its policies. CNSNews.com, Cybercast News Service.

Levidow, L. (June, 1998). Zionist anti-semitism. www.ariga.com.

Rabbi Toba Spitzer (1999).

Pappe, I. (May 2001). The MIT Electronic Journal of Middle East Studies

Vol. 1, May 2001, http://web.mit.edu/cis/www/mitejmes/

Shonfeld, M. (1977).The Holocaust victims accuse. (P. 26) Brooklyn, NY: Neturei Karta of USA.

Spitzer, T. (1999). Looking at the land.

http://townonline.koz.com/visit/597/FSLO-972442483-607597.htm

Tennenbaum, S. (17/9/1997). Ther is more to Jewry than the Holocaust. Newsday, pp. A41.

Thompson, S. (23 October, 2000). Raging against self defense. Jews for the Preservation of Firearms Ownership, Inc. www.jpfo.org